فى قلوب المؤمنين فى جانب الإيمان ؛ لأن الله مع الذين آمنوا.

ثم يؤكد الحق سبحانه وتعالى حثه للمؤمنين على القتال فيقول:

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

وقوله تعالى : ﴿فَقَاتِلُوا﴾ فى الآية السابقة كانت حثا للمؤمنين على القتال، و﴿قاتلوهم﴾ الثانية التى فى هذه الآية ؛ للتحريض والترغيب فى القتال، وأمر إيمانى للمؤمنين بأن يقاتلوا الكفار. ثم يأتى المولى سبحانه وتعالى فى هذه الآية بالحكمة من الأمر بالقتال فيقول: ﴿يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ﴾ ونتساءل: إذا كان الله يريد أن يعذبهم فلماذا لايأتى بآية من عنده تخضعهم للعذاب؟

نقول: لو انتصر المؤمنون بحدث كونى غير القتال لقال الكفار: حدث كونى هو الذى نصرهم. ويشاء الله سبحانه وتعالى أن ينهزم هؤلاء الكفار بأيدى المؤمنين؛ لأن الكفار ماديون لايؤمنون إلا بالأمر المادى، ولو أنهم كانوا مؤمنين بالله لانتهت المسألة ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يُرِىَ الكفار بأس المؤمنين لتمتلىء قلوبهم هيبة وخوفاً من المؤمنين، ويحسبوا لهم ألف حساب، فلا تحدثهم أنفسهم بأن يجترئوا على الإيمان وعلى الدين أو أن يستهينوا بالمؤمنين.

ولقائل أن يقول: إن الحق هنا يأمر فيقول : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ﴾ .

وفى آية أخرى يقول:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]

فكيف يثبت الله العذاب وينفيه؟. ونقول: لقد نزلت الآيتان فى الكفار. وسبحانه وتعالى يقول: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ ولو قال : قاتلوهم تعذبوهم بأيديكم لاختلف المعنى، ولكن الآيتين تثبت إحداهما العذاب والأخرى تنفيه، ونقول: إن الجهة منفكة، فقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ أى: لاينزل الله تعالى عليهم عذابا من السماء ما دمت فيهم، وقد وضح هذا فى قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾ [الأنفال]

فقد سبق أن طلب الكفار عذابا من السماء ينزل عليهم إن كان القرآن هو الحق؛ فرد الحق سبحانه وتعالى بأنه لا يعذبهم مادام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم؛ لأنه أرسله رحمة للعالمين. ولكن عدم تدخل السماء بالعذاب بعد بعث رسول الله بالرسالة، لا يعنى أن العذاب قد انتهى بالنسبة للكفار. وائتمن سبحانه المؤمنين على نصرة منهجه ودينه وهو معهم. ولكن العذاب يتم بالأسباب الأرضية، ولايوجد تناقض. لأن العذاب من السماء قد يكون استئصالا لكل الكافرين؛ صغارا و كبارا، كأن يغرقهم الطوفان، أو تأتى الصيحة فتبيدهم عن آخرهم، أو تجيئهم ريح صرصر عاتية تدمرهم، أوتصيبهم الرجفة فتجمدهم، وفى كل هذه الحالات لا يبقى أحد من الكفار، ولكن القتال البشرى لا يقضى على الكفار نهائيا، فالإسلام يمنعنا من قتال النساء

والصبيان[١] ، ومن قتال الذين لم يقاتلونا[٢].

إذن فالعذاب بعد رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس عذاب استئصال وإبادة كما كان فى الأمم السابقة.ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد عذَّب الأمم السابقة بتلك الوسائل، فكان على الرسول من السابقين على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم أن يبلغ الرسالة، وإن لم يؤمن قومه برسالته تتدخل السماء ضدهم بألوان العذاب السابقة. ولكن الحق تبارك وتعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته من بعده أن تدعو لدين الله، وتؤدب من يختصم الإيمان ، ويدخل فى عداوة مع المؤمنين فمنهم من يفر أو يقع فى الأسر ويبقى الطفل والمرأة دون تعذيب.

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٤]

ومالفرق بين العذاب والخزى؟ نقول : قد نجد واحدا له كِبْرٌ وجَلَدٌ، وإن أصابه العذاب فهو يتحمله ولا يظهر الفزع أو الخوف أو الضعف، ويمنعه كبرياؤه الذاتى من أن يتأوه، ولمثل ذلك هناك عذاب آخر هو الخزى، والخزى أقسى على النفس من العذاب؛لأن معناه الفضيحة، كأن يكون هناك إنسان له مهابة فى الحى الذى يسكن فيه، مثل فتوة الحى، ثم يأتى شاب ويدخل معه فى مشاجرة أمام الناس ويلقيه على الأرض، هذا الإلقاء لا يعذبه ولايؤلمه، وإنما يخزيه ويفضحه أمام الناس، بحيث لا يستطيع أن يرفع رأسه بين الناس مرة أخرى، والخزى هنا أشد إيلاما لنفسه من العذاب. ولا يريد سبحانه أن يعذب

---

(١) وقد وردت بهذا السنة الشريفة، فعن عبدالله بن عمر قال:« وجدت امرأة مقتولة فى بعض مغازى رسول الله ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان». أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠١٤، ٣٠١٥) ومسلم (١٧٤٤).

(٢) يقول عز وجل : ﴿لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾ [الممتحنة: ٨]
قال القرطبى فى تفسيرها : «هذه الآية رخصة من الله تعالى فى صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم» وذكر أقوال من ذهب إلى أنها منسوخة بآية ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ ثم قال: «وقال أكثر أهل التأويل: هى محكمة. واحتجوا بأن أسماء بنت أبى بكر سألت النبى ﷺ: «هل تصل أمها حين قدمت عليها مشركة؟ قال: نعم». خرجه البخارى ومسلم».

الكفار بأيدى المؤمنين فقط، بل يريد لهم الافتضاح أيضا ،بحيث لا يستطيعون أن يرفعوا رءوسهم. وجاء الحق سبحانه بنتيجة ثالثة لهذا القتال فقال:

﴿ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ١٤]

وعلى هذا فعندما يقاتل المؤمنون الكفار يصيب الكفارَ العذاب والخزى والهزيمة. إذن ﴿يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ﴾ مرحلة، ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾، مرحلة ثانية ﴿وَيَنْصُرْكُم عَلَيْهِمْ﴾ مرحلة ثالثة، ثم تأتى المرحلة الرابعة:

﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٤]

أى : أن النصر الذى سيحققه المؤمنون بعون الله تعالى فى قتالهم مع الكفار سيشفى صدور المؤمنين الذين استذلهم الكفار واعتدوا عليهم، فكأن هذا النصر يشفى الداء ،الذى ملأ صدور أولئك المؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم، أى : يخرج الغيظ والانفعال المحبوس فى الصدور، فكأن قتال المؤمنين للكفار لايحقق فقط العذاب والخزى للكفار والنصر للمؤمنين عليهم، ولكنه يعالج - أيضا - قلوب المؤمنين التى ملأها الألم والغيظ من سابق اعتداء الكفار عليهم ومحاولتهم إذلالهم وأخذ حقوقهم. لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾

وهكذا يرى الذين غدروا بالعهد وتعاونوا ضد أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم، يرون انتقام الله تعالى لهم، فتشفى صدور المؤمنين ويذهب منها الغيظ. والشفاء - كما نعلم - إنما يكون من داء، والدواء ضرورة للشفاء، وكأن انتقام الله عز وجل فيه شفاء لصدور المؤمنين من كفار قريش الذين

أعانوا أبناء بكر على أبناء خزاعة حلفاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيعذبهم الله بأيديكم، وينصركم عليهم، ويخزهم سبحانه وتعالى.

ونلمس أنه ـ سبحانه وتعالى ـ رغم تعذيبه لهم ، وتشديد النكير عليهم ، إلا أنه يفتح باباً للتوبة، وهى مسألة لا يقدر عليها إلا رب حكيم؛ لأن الكل عبيد له؛ مؤمنهم وكافرهم، هو خالقهم، وسبحانه يغار على صنعته، فبعد أن يشتد عليهم بالعذاب والخزى، ويشفى بهذا صدور القوم المؤمنين، بعد ذلك يفتح باب التوبة ، وبهذا يعطى المؤمنين قوة سماحة إيمانية، فلا يصطحبوا التعالى على هؤلاء إن جاءوا تائبين مؤمنين فيقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٥]

أى :أنه سبحانه يعلم كل متطلبات الأحكام، ولكل أمر عنده حكمة، فالقتال أراده الله عز وجل لِيدُكَّ به جبروتهم، والتوبة حكمتها لمنع تمادى الكفار وطغيانهم فى الشر؛ لأن مشروعية التوبة هى رحمة من الحق سبحانه وتعالى بخلقه، ولو لم يشرع الله التوبة لقال كل من يرتكب المعصية: ما دامت لا توجد توبة، ومادام مصيرى إلى النار، فلآخذ من الدنيا ماأستطيع، وبذلك يتمادى فى الظلم ويزيد فى الفساد والإفساد؛ لأنه يرى أن مصيره واحد مادامت لاتوجد توبة، ولكن تشريع التوبة يجعل الظالم لايتمادى فى ظلمه ، وبهذا يحمى الله المجتمع من شروره، ويجعل فى نفسه الأمل فى قبول الله لتوبته والطمع فى أن يغفر له؛ فيتجه إلى العمل الصالح عَلَّهُ يُكفِّر عما ارتكبه من الذنوب والمعاصى؛ وفى هذا حماية للناس ومنع لانتشار الظلم والفساد .

إذن فالقتال له حكمة، والتعذيب له حكمة، والخزى له حكمة، والتوبة لها حكمة، وسبحانه وتعالى حين يعاقب، إنما يعاقب عن حكمة، وحين يقبل التوبة فهو يقبلها عن حكمة.

ثم يقول الحق عز وجل بعد ذلك:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

ساعة تسمع «أم» فاعلم أنها إضرابية، أى: ما كان الله سبحانه ليترككم حتى يعلم ـ علم الواقع ـ من منكم يؤمن إيمانا يؤهله للجهاد فى سبيل الله؛ فإن ظننتم أن الله تارككم بدون ابتلاء وبدون أن يختبركم ويمحصكم[1]، فيجب أن تعرضوا عن ذلك وتفهموا مايقابله.

إذن فالابتلاء أمر ضرورى لمن أراد الله تعالى له أن يتحمل أمر الدعوة ليواجه شراسة التحلل والفساد، لذلك يُصفِّى الله من آمنوا حتى يقف كل واحد منهم موقف الانتماء إلى الله مضحيا فى سبيل الله. وساعة يقول الحق عز وجل فى شىء كلمة ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ﴾ فليس معنى ذلك أنه لم يعلم وسيعلم، لا، فسبحانه يعلم كل شىء أزلا، ولكن العلم الأزلى لا يكون حجة على البشر. ودائماً أضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد عميد إحدى الكليات أحيانا يعلن عن جائزة علمية يريد أن يعطيها للمتفوقين؛ فيقول له المدرس الذى يشرف على تحصيل التلاميذ: إن فلاناً هو الأول وهو يستحق الجائزة،

(١) يقول تعالى ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [العنكبوت: ٢، ٣] وقد قال تعالى: ﴿وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾ [آل عمران: ١٤١] والتمحيص هو: الاختبار والابتلاء، والتمحيص أيضا: التخليص والتطهير. ومنها تمحيص الذهب أى اختباره لمعرفة الجيد منه من الردىء.

فيقول العميد: ولكنى أريـد أن تعقد امتحاناً ؛ ليكـون حجة على غير المتفوقين؛ وهذا هـو علم الواقع العملى الذى أراده الحق عـز وجل من الابتلاء، وسبحـانه وتعالى يعلم كل شيء أزلا، ولكن العلم الواقعى هو حجة على المخالفين.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا ﴾ [التوبة: ١٦]

أى بدون ابتلاء أو تمحيص. وقوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ ﴾ [التوبة: ١٦]

«ولـمَّـا» للنفى، ومثلها مثل قـولنـا: «لما يأت» أى :أنـه لم يتحقق المجيء حتى الآن، وتختلف «لما» عن «لم»، فـ«لم» لاتـؤذن بتوقع ثبـوت مـابعدهـا، فما يأتى بعـدها لن يتحقق أبـدا، أما «لما» فتـؤذن بتوقع ثبـوت ما بعـدها ، أى أن مابعـدها.. لم يتحقق إلى لحظة نطقهـا، ولكنه قـد يتحقق بعد ذلك. فإن قلت: «لما يثمـر بستاننـا» أى :أن البستـان الذى تملكـه لم يثمر، ولكنـه قـد يثمر بعـد ذلك. وسبحانه وتعالى يقول:

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]

ومعنى القـول الكـريم: أن الإيمان لم يـدخل فى قلـوبهم إلى الآن، ولكنـه سوف يدخل بعـد ذلك، وهذه بشارة لهم. فقد قـالت الأعراب: «آمنا» فأوضح الحق سبحانـه وتعالى: بل أسلمتم ولم يـدخل الإيمان قلوبكـم؛ لأن الإيمان هو الاعتقاد القلبى الجازم، والإسـلام انقياد لما يتطلبـه إيمان القلب من سلوك، أى: أنتم قـد سلكتم سلـوك الإسـلام، ولكنـه سلـوك سطحى لم يـأت من ينـابيع القلب. وقول الحق هنا:

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ ﴾ [التوبة: ١٦]

لايعنى أن علمــه متصل بـوقت الكــلام، فعلم الله تعـالى مــوصـول أزلى وسبحانه مُنزَّهٌ عن الأغيار.

إذن فالعلم المراد هنا هـو علم الواقع الذى سوف يكـون حجة عليكم؛ لأن الله سبحانـه وتعالى لـو لم يختبركم لقلتم: لو أمرتنـا يا رب بالقتـال لقاتلنـا، ولو أمرتنا بالصبر فى الحرب لصبرنا، وَلَكُنَّا أكبر المجاهدين.

ولذلـك جاءت الابتـلاءات كتجربة عمليـة، ومن هـذه الابتلاءات مـواجهة العـدو فى حـرب، فمن هـرب ثبت لـه التقصير فى المواجهـة، ومن لم يصبر على الابتلاءات، عرف نقص إيمانه وأصبح ذلك علما واقعا.

﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ [التوبة : ١٦]

إذن فالله يـريد بعلم الـواقع التميز بين صـدق الجهاد وبين الفـرار منه، وأن يكون هنـاك سلوك إيمانى واضـح؛ يبين أن هؤلاء القوم لم يتخـذوا من دون الله ولا رسوله وليجة، و«الوليجة» من فعيلة، بمعنى فاعل، و«والجة» يعنى «داخلة».

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾[الحج: ٦١]

أى: يُـدخل الليل على النهار ويُـدخل النهار على الليل، والمراد بـــ«الوليجة» الشىء الذى يدخل فى شىء ليس منه، وهى من الكلمات التى تطلق ويستوى فيها المفـرد المذكر والمؤنث، والمثنى والمثناة وجمع المذكـر وجمع المؤنث، وتقول : «امرأة وليجة»، و«رجل وليجة» ، و«امرأتـان وليجة»، و«رجلان وليجة»، و«نساء وليجـة» و«رجال وليجـة». كما تقول : «رجـل عدل» و«امـرأة عدل»، و«رجـلان عدل»، «امرأتـان عدل»، و«رجال عدل» و«نسـاء عدل»، لا تختلف فى كل هذه الحالات.

والمراد بالوليجة هنا بطانة السوء[1] التى تدخل على المؤمنين الضعاف، وتتخلل نفوسهم ليفشوا أسرار المؤمنين ويبلغوها للكفار. ولذلك شاء الحق سبحانه وتعالى أن يوضح لنا ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا﴾ أى: أن يعلم سبحانه علما واقعيا من جاهدوا، ولم يتخذوا بطانة سوء من الكفار يدخلونهم فى شئونهم دخولا يجعلهم يكتشفون أسرارهم.

﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ [التوبة : ١٦]

فالممنوع هنا - إذن - أن يتخذ المؤمنون الكفار وليجة ؛ لأن الكافر من هؤلاء سيأخذ أسرارهم ويفشيها لعدوهم. وبذلك يتعرض المؤمنون للخطر. وعلى المؤمن أن يجعل الله عز وجل هو وليجته، وأن يجعل الرسول صلى الله عليه وسلم هو وليجته، وأن يجعل المؤمنين هم وليجته، ويسمح لهم أن يتداخلوا معه، وهم مأمونون على مايعرفونه من بواطن الأمور، أما الأعداء والخصوم من الكفار فهم غير مأمونين على شيء من أسرار المؤمنين. ويذيل الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله:

﴿ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٦]

والمعنى: إن كنتم تحسبون أنكم تتداخلون مع الكفار وتعطونهم أسرار المؤمنين ولا أحد يعرف، فاعلموا أن الله تعالى يسمع ويرى، وأن الله خبير لاتخفى عليه خافية، فلا تخدعوا أنفسكم وتحسبوا أنكم إن أخفيتم شيئا عن عيون الخلق قد يخفى على الله أبدا ؛ فلن يخفى شيء عن عيون الخالق ؛

(١) عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال: «مابعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالخير، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله عز وجل». أخرجه البخارى فى صحيحه (٧١٩٨) وأحمد (٣/ ٣٩، ٨٨) والنسائى فى سننه (٧/ ١٥٨)

لأنكم إن عمَّيتُم على قضاء الأرض، فلن تُعمُّوا على قضاء السماء[1] .

وينقلنا الحق سبحانه وتعالى إلى قضية أخرى فى قوله عز وجل:

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

وكأن هذه الآية قد جاءت حيثية للبراءة التى حَمَّلها رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ليعلنها يوم الحج الأكبر[2] ؛ لأن البراءة هى القطيعة، ومعناها ألاَّ يدخل المسجد مشرك، ولايطوف بالبيت عريان، فكأن البراءة من الله عز وجل ورسوله من المشركين مَنْعٌ لهم من دخول المسجد الحرام، وكان عدد من المشركين قد جعلوا من المسجد الحرام منتدى لهم ، وكانوا يجلسون فيه للتسامر والتجارة ولغير ذلك، كما كانوا يقومون بسقى الحجيج من شراب الزبيب الذى لم يختمر ؛ ومعهم حجاب البيت، ويطعمون زوار بيت الله الحرام.

كل ذلك كان يحدث فى مكة من الكفار ولكن هذا انتهى بالبراءة التى أعلنها على بن أبى طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ الذى أوحى إليه

(١) عن أم سلمة قالت قال رسول اللهﷺ: «إنكم تختصمون إلى، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضى له على نحو مما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه، فإنما أقطع له به قطعة من النار» أخرجه البخارى (٢٦٨٠) ومسلم (١٧١٣) .

(٢) عن أبى هريرة قال :« بعثنى أبو بكر فى تلك الحجة فى المؤذنين، بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى ألا لايحج بعد العام مشرك، ولايطوف بالبيت عريان». قال حميد: ثم أردف النبىﷺ بعلى بن أبى طالب فأمره أن يؤذن ببراءة. قال أبو هريرة: فأذن معنا على فى أهل منى يوم النحر ببراءة، وألا لايحج بعد العام مشرك ولايطوف بالبيت عريان». أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٥٦).

ربه بأن يفعل ذلك ، ولم يعد للمشركين حق فى ﴿أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ﴾. والعبارة لها معنيان؛ المعنى الأول هو الجلوس فى هذه المساجد بحيث تكون عامرة بزوارها، والمعنى الثانى هو المحافظة على بناية المسجد ونظافته وإصلاحه. وقد منع الله المشركين من كلا النوعين من العمارة[1] .والكلام هنا عن المسجد الحرام؛ لقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾

[التوبة: ٢٨]

نقول : إنَّ المسجد الحرام هو مكان تتجه إليه كل اتجاهات الناس فى كل بقاع الأرض حين يقيمون الصلاة لأن كل مكان يسجد فيه إنسان مسلم يسمى مسجدا، وبتعدد الساجدين ، يعتبر المسجد الحرام مساجد، أو لأن جهات السجود تتعدد فى المسجد الحرام ؛ فواحد يسجد شمال الكعبة، وآخر جنوب الكعبة وثالث شرق الكعبة، ورابع غرب الكعبة؛ هذا فى الجهات الأصلية، وهناك الجهات الفرعية؛ فهناك أناس يتجهون شمال شرق، وأناس يتجهون جنوب شرق، وغيرهم يتجه جنوب غرب، وتتعدد الجهات الفرعية فى الاتجاه إلى الكعبة ؛ إذن فكل جهة متجهة هى مسجد وهناك ممن لا يرون الكعبة فى بقاع الأرض يتجهون إليها .

وحين تسمع قول الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [التوبة]

نلحظ أنَّ «كان» هنا جاءت منفية ومنها نفهم المعنى: ليس مقبولا فى عرف

(١) قال القرطبى فى تفسير الآية: «اختلف العلماء فى تأويل هذه الآية فقيل: أراد ليس لهم الحج بعد ما نودى فيهم بالمنع عن المسجد الحرام، وكانت أمور البيت كالسدانة والسقاية والرفادة إلى المشركين فبين أنهم ليسوا أهلا لذلك بل أهله المؤمنون» .

العقل أو المنطق أو الدين أن يقرب الكفار المسجد، ولا أن يرعى مشرك المسجد أو يصونه؛ لأن المسجد للعبادة، والعبادة تقتضى معبودا هو الله سبحانه وتعالى، والكفار يشركون بالله، فمن المنطق ـ إذن ـ ألا يكون لهم دخل بالمساجد، إذن فمنعهم من المسجد إقامة وعمارة وزيارة هو شيء منطقى بشهادتهم على أنفسهم بالكفر، وهى سبب منعهم من الاقتراب من مساجد الله.

والشهادة إما أن تكون شهادة قول ؛ وإما أن تكون شهادة حال، أما شهادة القول فذلك لأنهم كانوا يقولون لليهودى: على أى دين أنت؟فيرد بديانته ، وكذلك القول للنصرانى، وحين يسأل المشرك؛ فهو يقر بشركه[1]، هذه هى شهادة القول. أما شهادة الحال فهى أنهم يسجدون للأصنام ويعبدونها من دون الله.

فكيف يكون الإنسان مشركا ثم لانقول له: ليس لك علاقة بالمسجد؛ ارفع يدك عنه ؟ وماأغنى الإسلام عن أن يبنى له مشرك مسجدا أو يعمر كافر بيتا من بيوت الله وماأغنى الله أن يزوره فى بيته من هو غير مؤمن به سبحانه . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾ [التوبة : ١٧]

وهم قد نسوا الشهادة الأولى بالحق حينما أشهدهم الله سبحانه وتعالى على أنفسهم، فالحق سبحانه هو القائل:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)﴾ [الأعراف]

(١) قاله السدى . نقله ابن كثير والقرطبى فى تفسيريهما للآية .

هم إذن قد أقروا لحظة الخلق الأولى بوحدانية الله وعاهدوا الله تعالى على ذلك، لكنهم كفروا بتلك الشهادة وأشركوا به سبحانه ووضعوا فى بيت الله الحرام أصناما. وادعوا الكذب وقالوا:

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٣]

وهذا هو الإشراك بعينه، وهذه هى شهادتهم على أنفسهم بالكفر.

﴿ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ١٧]

والمسجد - كما نعلم - هو المكان الذى نسجد فيه، وكل بقعة فى الأرض بالنسبة للمسلمين تصلح للسجود وتعتبر مسجدا، وهذا مما خص به الله تعالى أمة الإسلام، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فَلْيُصَل ، وأُحلَّتْ لى المغانم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[1].

فهذا الحديث يبين أن مما خص الله به الأمة المحمدية أن جعل لها كل بقاع الأرض صالحة لأداء الصلاة فيها ،كما جعل لها الأرض أيضا طهوراً، ويكفى المسلم أن يتيمم من الأرض ويصلى عليها ، ولكنْ هناك فارق بين مكان يصلح لك أن تصلى فيه، وأن تباشر نشاط حياتك، وبين مكان مخصص للعبادة، فالحقل الذى تزرع فيه، لك أن تصلى فيه وتزرع، والمصنع لك أن تصلى فيه، ولك أن تصنع، وكذلك المدرسة لك أن تتعلم فيها، ولك أن تصلى فيها ، وهذه كلها مساجد بالمعنى العام ، وهى أماكن سجود لله تعالى، لكن كلمة «مسجد» إذا أطلقت انصرفت إلى الحيز المحدود من المكان الذى أخرج من نشاطات الحياة كلها، وخُصّ بأن يكون للصلاة والسجود فقط، فإذا

(١) متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١).

حيزت مكاناً بخط أبيض من الجير، أو حيزته بسلك وقلت: هذا مسجد، فلا يزاول فيه نشاط إلاَّ الصلاة، هذا هو المسجد الاصطلاحى الشرعى. وكل بيت لله بنيته فى أى مكان يسمى مسجدا، وقبلة المساجدالمنتشرة فى بقاع الأرض هى المسجد الحرام ؛ فهى أماكن حيزت للمسجدية ، أو للعبادة ، أوللصلاة وليست لغير ذلك من حركات الحياة، ولكن تحييز المكان كان باختيار البشر. وقبلته المسجد الحرام وهو المسجد الجامع الأكبر باختيار الله تعالى، والحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦)﴾

[آل عمران]

ولأن هذا البيت الحرام هو باختيار الله، وموضوع للناس. فلنا أن نسأل: هل الناس هم الذين وضعوه ؟ لا، بل وضعه غير الناس، لأن تعريف الناس هم آدم وذريته، ولابد إذن أنه موضوع قبل آدم ، وبمنطق القرآن الكريم وجد البيت من قبل آدم، وإذا تعمقنا قليلا، نجد أن هذا البيت الحرام هو ﴿هدى للعالمين﴾ ومن العالمين الملائكة.

وهكذا نرى أن قول بعض القوم : إن إبراهيم هو الذى حدد مكان وقواعد البيت، قول لايثبت صدقه، لأن البيت هو المكان لا المكين، فالبيت ليس هو الحجر أو المبنى ، وهو ما نسميه الكعبة، فالكعبة هى «المكين» أما البيت فهو المكان الذى أقيمت فيه الكعبة ؛ لأنه إن جاء سيل وأزال الكعبة، جعلها أرضاً مسطحة فأين نصلى؟ نصلى إلى اتجاه المكان، فالسيل يُذْهِبُ المكين لكن المكان باق.

وعندما جاء سيدنا إبراهيم عليه السلام كان أثر البيت ضائعا، وأمره ربنا أن يرفع البيت، ولم يقل له : حدد المكان، بل أمره أن يبنى البعد الثالث؛ لأن كل حيز له بعدان؛ الطول والعرض، وإن كان دائرة فله المحيط، وإن

كـان مثلـثا يكـون من ثـلاثة أضـلاع. لكـن الارتفـاع يـدخل بـالشىء إلى الحجم، وقد رفع الخليل إبـراهيم القـواعد مـن البيت. بعد أن حـدد المولى سبحانـه وتـعالى لـه المكـان وأظـهره لـه : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القـواعد من البيت﴾ . [البقرة : ١٢٧]

فكأن البيت مخصص قبل الرفع، بدليل أن الحق سبحـانه وتعالى حينها تكلم عن مجىء هاجر وابنها إسهاعيل الرضيـع، وإسكان إبراهيم عليه السلام لهما فى هـذا المكان قـال: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]

وقد رفـع إبراهيم عليـه السلام القـواعد وساعـده ابنه إسهاعيـل بعد أن كبر واشتـد عوده، ولكن سـاعة أن أسكنـه وأمه بجـانب البيت كان طفـلا صغيرا. إذن فالبيتية والمكانية موجـودة، ولكن إبراهيم أقام المكين وهو البعد الثالث أى الارتفاع .

ويقول الحق سبحانه وتعالى أيضا:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ [الحج: ٢٦]

أى أظهرنا وحـددنا المكان ،وهو الـذى سيبنى فيه سيدنا إبـراهيم بالأحجار ليبرز البيت، فالبيت ـ إذن ـ كان موجوداً من قبل.

ونلحظ أن المساجـد المنتشرة فى الأرض لابد أن يكون لها متجه واحـد، لإله واحد، وحـدد الحق هذا المكان بالقبلـة إلى الكعبة. وبعض المتحللين يحاول أن يقلب الفهم فى قول الحق:

﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥]

يقـولـون : إننـا إن اتجهنـا إلى أى مكـان سنجـد وجـه الله تعـالى، ونقـول:

الصحيح أن وجه الله عز وجل فى كل الوجود ،ولكن إياك أن تفهم أن تحديد الله للكعبة لتكون متجهنا، أنها هى وجه الله، لا، لكننا مأمورون بالاتجاه لها فى الصلاة. وأنت إذا نظرت أيضا إلى المسلمين فى كل الدنيا سوف تجد أن كل مسلم فى الأرض يتجه للكعبة فى صلاته، ومادامت الكعبة مركزا، وكلنا نتجه إليه ؛ فسوف تجد من يتجه وهو شرقه، وواحد يتجه وهو غربه، وواحد يتجه وهو شماله، وواحد يتجه وهو جنوبه .

إذن ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ ، ومادمنا قد عرفنا أن المساجد محيزة ومخصصة للعبادة ؛ فلايجوز أن يأتى إليها مشرك، ولانقبل أن يساهم فى إصلاحها ولانظافتها مشرك؛ لأن الله غنى عن ذلك، وعلينا أيضا ألا نناقش أمورنا الدنيوية فى مسجد، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يأتى على الناس زمان يتحلقون فى مساجدهم وليس همتهم إلا الدنيا ، ليس لله فيهم حاجة فلا تجالسوهم » [1]

كأنه لم يكفهم حب الدنيا خارج المسجد ويطمعون فى الدقائق التى يخصصونها للصلاة، فيجرجرون الدنيا معهم إلى المسجد،وأقول لهم : لماذا لاتتركون مصالح الدنيا فى تلك الدقائق؟ إن الواحد منكم إنما يحيا فى سائر الدنيا فى نعمة الله. إذن فليجعل نصيبا من وقته لله صاحب النعمة .

إذن لابد أن نعرف أننا ما دمنا قد خصصنا مكانا لعبادة الله، فلا بد أن نصحب هذا التخصيص فى المكانية إلى التخصيص فى المهمة التى يدخل الإنسان من أجلها للمسجد، فيتجه إلى الله؛ لأن المسجد خاص لعبادة الله؛ ومع أن الأرض كلها تصلح للصلاة، لكنك حين تأتى إلى المسجد اصحب معك أخلاق التعبد. ويجب أن يكون الانفعال، والتفاعل، والحركة والنشاط كلـــــه فى الله، ولذلك فأفضل ماتفعله ساعة تدخل المسجد، هو أن تنوى

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٣٢٣) من حديث أنس رضى الله عنه وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ووافقه الذهبى .

الاعتكاف فتنزع نفسك ممن ينوى أن يتكلم معك فى أحوال الدنيا .

لقد ورد الأثر النهى عن الحديث فى المساجد لأنه يحبط العمل ويمحو الحسنات ، وأنت قد تصنع الحسنات كثيرا خارج المسجد ، ولكن عليك ألا تدخل المسجد إلا بأدب المسجد ؛ فالحضور بين يدى الله تعالى فى مسجده وفى بيته له آدابه وسلوكه ، فيجب عليك ألاَّ تتخطى الرقاب وهذه لا تحتاج إلى تنظيم ، بمعنى ألا تجعل الأماكن فى الأمام خالية ، وفى الخلف مزدحمة ؛ حتى يستطيع أن يجلس كل من يحب أن يصلى دون أن يتخطى الرقاب[1] ، ويكون الجلوس فى المساجد، الأول فالأول، وهكذا يتحقق الأدب الإيمانى فى المساجد.

ونعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بالبوار على كل صفقة تعقد فى المسجد . ودعا على كل من يريد شيئاً دنيوياً من السجد ألا يوفقه الله فيه ، ودعا على كل من ينشد ضالة فى المسجد ألا يرد الله عليه ضالته ، حيث قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه : «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك[2] وإذا رأيتم من ينشد ضالته فقولوا : لا ردها الله عليك»[3] وفى حديث آخر له رضى الله عنه قال : إنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من سمع رجلا ينشد ضالته فى المسجد فليقل : لاردها الله عليك فإن المساجد لم تُبْنَ لهذا»[4] .

فالنجعل الجلوس فى المسجد - إذن - خاصا بالمنعم وهو الله ، أما فى خارج المسجد وفى سائر الأوقات ، فنحن نعيش مع النعمة التى أنعم الله بها علينا .

---

(١) عن عبد الله بن بسر قال : جاء رجل يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة ورسول الله ﷺ يخطب فقال له رسول الله ﷺ : « اجلس فقد آذيت» أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٩٠) وأبو داود (١١١٨) والنسائى (٣/ ١٠٣) .

(٢) أى : لاأوقع الله فيها الربح ، لأنك أتيت بها فى محل جعل للذكر والصلاة وقراءة القرآن . والبيع والشراء محلهما فى الأسواق خارج المساجد .

(٣) أخرجه النسائى فى عمل اليوم والليلة (ص٧٣) والدارمى (١/ ٣٢٦) والترمذى (١٣٢١) وقال : حسن غريب . وكذا الحاكم (٢/ ٥٦) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . ووافقه الذهبى .

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٦٨) وأحمد(٢/ ٣٤٩) وابن ماجه فى سننه (٧٦٧) .

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]

وما دام بيت الله تعالى ﴿هُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ أى أنه بيت لكل الناس وليس لمن يجلس فيه فقط، فكأن إشراقات الحق وتجلياته، أعظم ما تكون فى بيته أولا، ثم تشيع الإشراقات والتجليات فى جميع بيوت الله، وعلى عمارها والمتعبدين فيها، وبيوت الله هى الأماكن التى تتنزل فيها الرحمات من الحق سبحانه وتعالى، بدليل أنه سبحانه وتعالى حين تكلم عن نوره فى سورة النور قال:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦]

أى أن الذين يرون هذا النور ويتنزل عليهم هم عمار المساجد، وسورة النور جاء فيها - أيضاً - قول الله تعالى:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]

أى :أن نوره يملأ السموات والأرض. حين يضرب الحق سبحانه وتعالى مثلا للمعنويات ليتعرف إليها الناس فهو يقدم لها بأمر مادى يتفق عليه الكل، ليقرب الأمر المعنوى أو الغيبى إلى أذهان الناس؛ لأن المعنويات والغيبيات يصعب إدراكها على العباد. فلذلك فهو سبحانه وتعالى يقرب هذا الأمر ويبينه بأن يضرب لنا مثلا من الأمور المادية المحسة؛ حتى تقترب الصورة من الأذهان؛ لأننا جميعا نرى الماديات. وبهذا يلحق سبحانه الأمر المعنوى وهو غير معلوم لنا بالأمر المادى الذى نعرفه؛ فتقترب الصورة من أذهاننا وتتضح لنا، وهكذا شاء الحق سبحانه وتعالى أن يلحق المجهول بالنسبة للناس بالمعلوم عندهم .

وإذا كنا فى كون الله تعالى نجد النهار إنما يكون نهارا بإشراق الشمس

الواحدة التى تنير نصف الكرة الأرضيـة ، ثم تنير النصف الثانى من بعد غروبها عن النصف الأول، فيتميز النهـار بالضوء، ويتميـز الليل بالظلمـة، ومعنى النور فى الحسيات أنـه شعاع يجعل الإنسان يـرى ما حولـه؛ حتى يستطيع أن يتحرك فى الحياة دون أن يصطدم بالأشياء المحيطة به.

ولكن إن كـانت الدنيـا ظـلامـا فسيصطدم الإنسـان بما حـوله ، وأمـر من اثنين: إما أن يكون الإنسان أقوى من الشىء الـذى اصطدم به فيحطمه، وإما أن يكون هذا الشىء أقـوى من الإنسان فيصـاب الإنسـان إصابة تتناسـب مع قوة الشىء الـذى اصطدم به. والذى يحميك من أن تحطم أو تتحطم هـو النور الذى تسير على هداه.

إذن فساعـة أن يأتى النور ، تتضح أمامك معـالم الدنيا، وتكـون خطاك على بينة من الأمـر؛ فلا تـرتطم بما هو أضعف منك فتحطمـه، ولايرتطم بك مـاهو أقـوى منك فيحطمك، هذا هـو النور الحسـى، وأكبر مافيـه نور الشمس الـذى يستفيد منه كل الخلق، المؤمن والعاصى، والكافر والمشرك ، والمسخر من حيوان أو نبـات أو جماد، وهذا النـور نعمة عـامة خلقهـا الله سبحـانه وتعـالى بقانـون الربــــوبية الذى يعطى النعـــم لجميع خلقـه فى الـدنيا سـواء من آمنـوا أم لم يؤمنوا[(١)].

فإذا غابت الشمس نجـد كل واحد منـا يستعين بنور يعطيه الضـوء فى حيز محدود وعلى قدر إمكـاناتـه؛ فواحد يـوقد شمعـة، وواحد يأتى بمصبـاح «جاز» صغير ، وواحد يستخدم الكهرباء فيأتى بمصباح «نيـون»، وواحد يأتى بالعديد من مصابيح الكهرباء ليملأ المكان بـالنور ، كل على قدر إمكاناته، فإذا طلعت شمس الله فهل يبقـى أحـــد على مصبــاحـــه مضــــاء ؟ إن الجميع يطفئـــون مصابيحهم لأن شمس الله قد سطعت تنير للجميع، ذلك هو النور الحسى.

(١) عن عبـدالله بن مسعود قـال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله قسم بينكم أخـلاقكم ،كما قسم بينكم أرزاقكم ،و إن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا لمن أحب » .
أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٨٧) والحاكم فى مستدركه (١/ ٣٣) (٢/ ٤٤٧) (٤/ ١٦٥) وصححه ووافقه الذهبى وعزاه الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٨) لأحمد وقال : رجاله وثقوا وفى بعضهم خلاف .

والفرق بين نـور بقدرات الإنسان ونور من خلق الله يتمثل فى أن النـور الذى من خلق الله يطفىء المصابيح كلها لأنه يغمر الجميع.

وفى المعنـويات نـور أيضا فـالنـور المعنوى يهديك إلى القيم حتى لاتـرتطم بالمعنـويات السافلة التى قـد تقابلك فى مسيرة الحياة، إذن فكل مايهــدى إلى طريق الله يســمى نورا. ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥]

إنه نور المنهج الذى ينير لنا المعنويـات، وينير لنا القيم؛ فلا يحقد أحدنا على الآخر، ولايحسد أحدنا الآخر، ولايرتشى أحد. ويرعى كل منا حقوق غيره.

وإذا كـانت التجـربـة قـد أثبتـت أن نـورا من خلق الله وهـو الشمس، إذا سطعت فالجميع يطفئون مصابيحهم. فكـذلك إذا ما جاء نور الهداية من الله سبحانـه وتعالى فيجب أن تطفأ بقية الأنـــوار من مقترحات أفكار البشـــر، فلا يأتى أحد بفكر رأسمالى ، أ و يأتى آخر بفكر شيـــوعى، أو ثالث بفكر وجودى، لأن كل هـذه القيم تمثل أهواء متنـوعة من البشر ، وتعمل لحســاب أصحابها، أمـا منهج الله تعالى فهـو لصالح صنعـة الله وهم البشـر جميعا، فلا يحاول أحد أن يضــع قيما للحياة تخـالف منهـج الله ؛ لأنَّ الله قـد بيَّـنَ لنا منهــج العبادة ومنهج القيم، لذلك لا يصح أن يأتى إنسان بشـرع يخالف تعاليم الله.

ونقول لأصحاب الهوى فى المذاهب والعقائد المخـالفة لمنهج الله جميعا: لماذا لاتقيسـون الأمــور المادية على الأمـور المعنـويــة؟ لماذا إذا سطعت شمس الله تطفئون مصابيحكم، ولايحاول أحـد أن يوقد مصباحا ليهـديه فى نور الشمس؟. إذن. فما دام سبحانه وتعـالى قد أنزل نور الهدى منه فـلا بد أن نطفىء جميعا مصـابيح الأفكار القـائمـة على الهوى، ونأخـذ النور كلـه من منهج الله القـويم والصالح لكل زمان ومكان، كما نأخذ النور فى النهار من شمس الله.

وعلى الرغم من أن الله سبحانه وتعالى قد أعطانا التجربة الحسية التى لايختلف فيها اثنان، إلا أننا رفضنا أن نطبق هذا على منهج الله؛ وهو النور الذى أهداه لنا سبحانه وتعالى ليبين لنا الطريق، وأبى بعضنا إلا أن يأخذ من ظلمات العقل البشرى المحدود مايعطيه طريقاً معوجاً فى الحياة ،فامتلأت الدنيا بالشقاء والفساد ،ونسينا أن السبب فى ذلك أننا تركنا نور منهج الله عزوجل الذى يعطينا الحياة الآمنة الطيبة، ووضعنا لأنفسنا مناهج سببت التعاسة والفساد فى الكون.

ويقرب لنا الحق سبحانه وتعالى الأمر فى مثل مادى عن معنى نور الله فيقول سبحانه وتعالى:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]

أى : أن نوره سبحانه وتعالى يملأ السموات والأرض، وأنه يحيط بكل جوانب الحياة على الأرض فلا يترك جانبا منها مظلما، وقال جل جلاله:

﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [النور: ٣٥]

والمشكاة[1] هى «الطاقة المسدودة بالحائط»، وهى عبارة عن مكعب مفرغ فى البناء داخل كل حجرة وكان أهل الريف يضعون فيها المصابيح لتنير، واستبدله أهل الريف والبادية حاليا بـ«رف» صغير يوضع عليه المصباح، ودائرة صغيرة يخرج منها النور، ولأن ضوء المصباح مركز فى هذه الفتحة، فهى تمتلىء بالنور الذى بدوره يشع فى الحجرة. وحيز المشكاة بالنسبة للحجرة التى توجد فيها قليل وصغير، والنور الذى يخرج منها ، هو نور مركز يملأ الدائرة التى يخرج منها فلا يوجد فيها «ملليمتر» واحد مظلم، بل كلها نور، وإلا ما استطاع ضوءها أن ينير الحجرة. لأن هذا النور قبل أن يضىء الحجرة ؛ لابد أن يكون

(١) «المشكاة» كوة فى الحائط غير نافذة يوضع فيها المصباح ، وما يحمل عليه أو يوضع فيه القنديل أو المصباح وفى التنزيل العزيز (كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ) [المعجم الوسيط الجزء الأول ص ٤٩٢]

مركزا بأعلى درجة من التركيز فى الدائرة التى يخرج منها.

إذن فنور الله سبحانه وتعالى فى السموات والأرض نور شامل عام لايدع مكانًا مظلماً. ولامكاناً يختفى فيه شىء بسبب الظلام، تماما كمثل تلك الدائرة الصغيرة التى يشع منها نور المصباح فلا تجد فيها ملليمترا واحدا من الظلام، وقد سمى ما يعطى النور مصباحا ؛لأنه يعطينا بشائر الصبح. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾ [النور: ٣٥]

ونحن إذا أردنا أن نكثف النور فإننا نحيطه بالزجاج، ليحجب عنه الهواء الذى قد يؤثر على النور ويمنع تركيزه، والزجاجة التى تحيط بالمشكاة عاكسة للنور، وهذا كله يعطينا معنى للتكثيف والتركيز داخل المشكاة .ثم ينتقل المثل من بعد ذلك إلى الحجرة، فيقول الحق :

﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ [النور: ٣٥]

أى : أن الزجاجة ليست عادية، ولكنها مضيئة بنفسها لتزيد النور نوراً. ومن أى شىء يوقد هذا المصباح؟ يجيب الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ [النور: ٣٥]

أى :أن الشجرة المباركة ليست زيتونة فقط؛ ولكنها ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أى أن النور يخرج منها غير متأثر بمزاج حار أو بارد بل يخرج منها النور الصافى فى مزاج معتدل، وقد أطلقت كلمة «النور الصافى» على آخر مرحلة من مراحل الترقى فى الضوء. ومراحل الترقى بدأت من مشكاة ضيقة فيها مصباح غير عادى، والمصباح فى زجاجة غير عادية بل تكثف الضوء، فتظهر وكأنها كوكب درى مضىء بذاته، والزيت الذى يضىء يخرج من زيتونة مباركة، بأعلى

درجات النقاء. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [النور: ٣٥]

أى :أن كل شيء مضيء بذاته، ويضيف من قوة الضوء للنور، فالدائرة الصغيرة مضيئة؛ يزيد نورها زجاجة تكثف النور، والزجاجة ذاتها مضيئة فتعطى إضافة، والزيت مبارك ليست فيه أية شوائب فيعطى ضوءا ساطعا، وفوق ذلك كله تجد الزيت مضيئاً بذاته، دون أن تمسه النار، فكأنه نور على نور، فلا يصبح فى هذه الدائرة الصغيرة أى نقطة مظلمة، كذلك تنوير الله لكونه المتسع فلا توجد فيه نقطة واحدة مظلمة، بل كله مغمور بنور الله ، وإياك أن تظن أن هذا القول : ﴿الله نور﴾ هو تشبيه لله، بل هو تشبيه لتنوير الله سبحانه وتعالى لكونه الذى يشمل السموات والأرض وما بينهما.

وهناك قصة مشهورة للشاعر أبى تمام حين كان يمتدح أحد[١] الخلفاء فقال:

إقدام عمرو[٢] فى سماحة حاتم[٣] فى حلم أحنف[٤] فى ذكاء إياس[٥]

وهكذا جاء الشاعر بأولئك الذين اشتهروا بالإقدام والشجاعة كعمرو، وبالسماحة والكرم كحاتم ، وبالحلم كأحنف بن قيس، وبالذكاء كإياس، وقال الشاعر ممتدحا الخليفة : إنك قد جمعت كل هذه الصفات، التى لم تجمع فى واحد من خلق الله من قبل.

(١) أحمد بن المعتصم .
(٢) عمرو بن معدى كرب الزبيدى فارس اليمن .
(٣) حاتم الطائى المشهور بالكرم .
(٤) هو الأحنف بن قيس من سادات التابعين وكان شهما ومشهورا بالحلم .
(٥) كان قاضى البصرة ويضرب به المثل فى الفطنة والذكاء .

ولكن أحد المحيطين بالخليفة قال: كيف تمدح الأمير بصفات موجودة فى رعاياه، والأمير فوق كل ما وصفت، فهو أشجع من عمرو، وأكرم من حاتم، وأحلم من أحنف، وأذكى من إياس.

وأعطى الله الشاعر بصيرة ليرد على ارتجال ويقول:

لا تنكروا ضربى له من دونه ... مثلا شرودا فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلا من المشكاة والنبراس

أى :أن الشاعر قال مثلا فقط وليس تحديدا.

والحق سبحانه وتعالى قال:

﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [النور: ٣٥]

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ [النور: ٣٥]

أى أن كل شيء مضيء بذاته ليضيف نورا على النور الموجود، فكما أن الماديات تحتاج إلى نور يضيء لك الطريق، كذلك تحتاج المعنويات إلى نور يضيء لك البصيرة والسلوك ، فخذ منهج الله تعالى لأنه النور الساطع الذى لا يمكن أن يضيء مثله ولا معه نور آخر، وإذا أردنا أن نقرب الصورة إلى الأذهان، فالله سبحانه وتعالى قال للقوم الذين يستمعون إلى دعوة رسوله ﷺ :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]

والذين يخاطبهم الله سبحانه وتعالى بهذا الكلام أحياء، فكيف يقول لهم : ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ؟ .

نقول : إنه سبحانه وتعالى يريدنا أن نفرق بين حياة وحياة. فالحياة المادية

المتمثلـة فى الحس والحركـة والجرى، هى الحيـاة الـدنيـا بأجلهـا المحـدود، وإمكاناتها البسيطـة، ولأنها حياة أغيار ؛ لا تبقى فيها النعمـة ولا تدوم لأحد، بل كل إنسان فيها إما أن تفـارقه النعمة بالزوال ، وإما أن يفـارقها هو بالموت، وهذه ليست هى الحيـاة التى يريد الله من الإنسـان أن يعمـــل لها وحـدها . أو يسعــى ليتمسك بها. فبسببها يفعل كل ما يستطيع لكى يأخذ منها حلالا أو حراما، ولكن الحياة التى يطالب الله سبحـانه وتعالى عباده أن يعملوا لها هى الحيـاة المستقيمـة الحركـة على منهج الله وتقـود إلى حيـاة آخـرة فيهـا نعيم لايفارقك ولا تفارقه، وفيها أبـدية تبقى ولا تنتهى، وفيها نعم عظيمة تأتى بقدرة الله تعالى، وليس بقدرة البشر المحدودة.

إذن فقوله سبحانه وتعالى :

﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٤]

معنـاه أن الحياة حيـاتـان؛ حيـاة تحرك هذه المادة ؛ فتتحـرك وتجرى وتـروح وتجىء، وهى تنصلح بالمنهج الذى يقود إلى حياة أخرى فوق الحياة الدنيا.

إذن فالحياة الـدنيا بما فيها من سعى وتعب وجهد وفنـاء ليست هى الغاية التى يجب أن يسعى إليهـا الإنسـان، بـل على الإنسـان أن يسعى إلى الحيـاة الأرقى. وسبحانـه لا يريدنـا أن نأخذ المرحلـة الأولى من الحياة التى تحرك المادة فتتحرك وتجرى، بل يريد لنا حياة تقودنـا بالقيم، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد قال عن الحياة التى تحرك المادة:

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) ﴾ [ص]

فهذه حيـاة المرحلة الأولى التى لا يـريدنـا الله سبحانـه وتعالى أن نأخـذها كغـاية، ولكنـه يريـدنا أن نأخـذهـا وسيلة لنصل بها إلى الحيـاة الراقيـة فى كل صورها الخالدة بكل معانيهـا؛ المنعَّمة فى كل درجاتها. وكما سمَّى الحق سبحانه

وتعالى الروح التى تنفخ فى المادة فتعطيها المرحلة الأولى من الحياة روحاً ، فإنه كذلك سمَّى المنهج الذى يعطينا المرحلة الثانية من الحياة روحا ،حيث يقول :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ [الشورى]

هذه هى روح المنهج التى تعطينا المرحلة الثانية من الحياة. فإن أخذنا نور الهداية من الله سبحانه وتعالى فهو ينير لنا طريقنا فى القيم والمعنويات، تماما كما تنير لنا شمس الله طريقنا فى الحياة المادية. إذن فالحق لم يترككم للنور المادى ليحافظ على ماديتكم من أن تحطموا أو تتحطموا، وإنما أرسل إليكم نورا لتهتدوا به فى مجال القيم .

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ [النور: ٣٥]

ولم يقل سبحانه: «نور مع نور» ؛ لأن الإنسان لا يُكَلَّفُ من الله إلا بعد أن يصل إلى سن البلوغ[1] ، فالنور المادى يراه ويستفيد به قبل التكليف، ثم يأتى النور المعنوى فيتلقاه من الكتاب الذى أنزل على رسول الله عندما يبلغ سن التكليف فيتعرف على منهج الله.

﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [النور: ٣٥]

فلا يحجب الحق سبحانه وتعالى نور الشمس عن أحد ؛ لأنه نور لكل الخلق، وكذلك أنزل سبحانه وتعالى نور الهداية ليختاره كل من التمس الطريق

(١) عن على رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رفع القلم عن ثلاثة: عن الصغير حتى يبلغ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن المصاب حتى يكشف عنه» أخرجه أحمد (١/ ١١٦) وأبوداود (٤٣٩٩ - ٤٤٠٣) من طرق عن على، والحاكم فى مستدركه (١/ ٢٥٨) وصححه وأقره الذهبى.

إلى الهداية، وهذا النور المعنوى يختلف عن النور المادى، فالحق لم يحرم - إذن - أحدا من النور المادى، وشاء أن يجعل النور المعنوى ضمن اختيارات الإنسان؛ إن شاء آمن واهتدى، وإن شاء ضل. وكل ذلك مجرد مثل من الأمثال التى يضربها الله تعالى للناس ؛ لذلك قال عز وجل:

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٥]

وجاءت الآية التى بعدها لتوضح لنا أين ينزل نور الله على عباده؛ فقال سبحانه وتعالى:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ [النور: ٣٦]

وعندما تسمع جارا ومجرورا لا بد أن تبحث عن المتعلق بهما، فما الذى فى بيوت الله؟ إنك حين تبحث عن إجابة لن تجدها إلا فى قوله تعالى:

﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ [النور: ٣٥]

فكأن المساجد وهى بيوت الله هى أماكن تلقى النور المعنوى من عند الله سبحانه وتعالى ، وهو النور الذى يعطينا ارتقاء الروح ؛ لنصل إلى المرحلة الثانية من الحياة ، تماما كما يحدث فى الدنيا عندما تصاب آلة بعطب أو لاتؤدى مهمتها على الوجه الأكمل، فالذى يصلحها ويصونها لتؤدى مهمتها المطلوبة منها هو المهندس الذى صنعها . والله سبحانه وتعالى هو الذى خلق الإنسان ، فلا أحد يستطيع أن يدعى مهما اجترأ على الله سبحانه وتعالى أنه خلق نفسه أو خلق الناس. وهذه دعوى لم يدَّعِهَا أحد قط.

وما دام الله عز وجل هو الذى خلق، إذن فهو سبحانه وتعالى الذى يضع المنهج الذى يصون حياة الناس ويجعلها تؤدى مهمتها كاملة. ومادام ربنا هو الذى يخلق ويرزق، ويحيى ويميت، فكيف يأتى إنسان من البشر ليفتئت[1] على

(١) يفتئت : يقول الباطل ويختلقه .

الحق سبحانه وتعالى ويقول : إنه وضع منهجا لحياة البشر، ويعلم الإنسان ما يفسد حياته لا ما يصلحها. ونقول لكل من يفعل ذلك: لماذا تلجأ إلى من يصنع التليفزيون ليصلح لك الجهاز إن أصابه عطل، ولماذا لا تلجأ إلى صانعك الذى يصلح لك نفسك؟

إن تردد المسلم على بيت الله ليكون فى حضرة ربه دائما هو إصلاح لما فى النفس، فحين يقف المؤمن بين يدى الله ويصلى، يمتلىء بالرضا والتوازن النفسى ؛ لأن الواحد منا لا يعرف ما الذى يصيب أى ملكة من ملكاته بالارتباك.

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر يقوم إلى الصلاة[1]، وما معنى حزبه أمر؟ . أى :إن جاءه شىء أو أمر ، وكان فوق طاقته. وفوق أسبابه، ولا يستطيع أن يفعل شيئا تجاهه، وتضيق عليه الأمور . فلماذا لا يتبع الواحد منا رسول الله صلى الله عليه وسلم كأسوة حسنة ، فإن قابل أمرا مكروها وشاقا يقول : إن لى ربا أذهب إلى بيته وأصلى فأقف فى حضرته، فتحل أصعب وأعقد المشكلات . إذن فساعة يأتينا أمر شديد ، لا بد أن نتجه إلى الله عز وجل . وأفضل مكان نلتجىء فيه إلى الله تعالى هو بيته . فقد كان صلى الله عليه وسلم إذا كانت ليلة ريح شديدة كان مفزعه إلى المسجد حتى تسكن الريح ، وإذا حدث فى السماء حدث من خسوف شمس أو قمر كان مفزعه إلى الصلاة حتى تنجلى [2]

وبعض من الذين يحترفون الجدل واللجاجة يقول: ماذا سيفعل الله لى أولذلك الذى يعانى من شىء فوق طاقته؟ لقد دخل المسجد وخرج كما هو؟ ونقول: هذا الظاهر من الأمر، ولكنك لا تعرف ماذا حدث فى داخله، أنت تتحدث عن العالم المادى الذى فيه العلاجات المادية، ولكن الله سبحانه وتعالى

(١) عن حذيفة قال :« كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى». أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) .

(٢) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢/ ٢١١) وعزاه للطبرانى فى الكبير من رواية زياد بن صخر عن أبى الدرداء وقال: «لم أجد من ترجمه وبقية رجاله ثقات».

يعالج داخل النفس دون أن تحس أنت لأن المساجد هى مطالع أنوار الله تعالى وهى التى يتنزل فيها النور على النور الذى يُصلح الحياة الدنيا ويرتقى بها ؛لأن أنوار الله تدخل القلوب فتجعلها تطمئن، وتدخل النفوس فتجعلها تحس بالرضا والأمن.

إذن فالمساجد لها مهمة العيادة للطبيب[1] الخالق الذى خلق هذه النفس ويعرف كيف يداويها، وليس للطبيب الدارس فى كلية الطب الذى يعرف أشياء وتغيب عنه أشياء. ونحن فى المساجد إنما نعيش فى حضرة الحق تبارك وتعالى نتلقى منه التجليات والفيوضات التى تعالج نفوسنا أكثر مما يعالجها أبرع أطباء العالم ، على أننا إذا دخلنا المسجد فلنعرف أن لهذا المكان قدسيته، ولابد أن يحرص الإنسان على نظافته ومظهره، ولنرتد أحسن ثيابنا ؛لأن الله لاينظر إلى نظافتنا أو أناقتنا، ولكن ليحرص كل منا على ألا يتأفف منه من يصلى بجانبه؛ فمن يعمل فى مصنع ويحضر إلى المسجد بملابس العمل قد لاتتناسب ملابسه مع المجىء إلى المسجد إلا بعد أن يغتسل؛ إن ملابسه شرف له فى عمله، ولكن عليه أن يغيرها حين يذهب إلى المسجد،[2] ومن يعمل فى مكتب قد يكون الجو حارا أو امتلأ جسده بالعرق، وملابسه التى يوجد بها فى وظيفته هى شرف له فى عمله، ولكن عليه أن يغتسل، وأن تكون رائحته طيبة حين يدخل المسجد. ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أكل ثوماً أو بصلاً أن يأتى المسجد حتى لا يتأذى أحد بالرائحة التى تصدر من فمه . وقال صلى الله عليه وسلم فى حديثه الشريف الذى يرويه جابر رضى الله عنه: « من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلنا أو فليعتزل مسجدنا »[3] .

(١) تعبير «الطبيب الخالق» الذى استخدمه فضيلة الشيخ الشعراوى هنا هو تعبير استخدمه رسول الله ﷺ، وذلك فى حديث أبى رمثة رضى الله عنه قال: انطلقت مع أبى نحو النبى ﷺ فإذا هو ذو وفرة بها ردع حناء وعليه بردان أخضران فقال له أبى : أرنى هذا الذى بظهرك فإنى رجل طبيب. قال: «الله الطبيب، بل أنت رجل رفيق ، طبيبها الذى خلقها».

(٢) وقد جاء بهذا حديث رسول الله ﷺ فعن عائشة قالت: إن الناس كانوا عمال أنفسهم، وكانت ثيابهم النمار (جلود النمور) فكانوا يروحون فى مهنتهم كما هى ، فقال رسول الله ﷺ: «لو اغتسلتم وما على أحدكم أن يتخذ ليوم الجمعة ثوبين سوى ثوبى مهنته». أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٦٣) والبخارى (٢٠٧٠) وابن ماجه (١٠٩٦) واللفظ تاما لابن ماجه.

(٣) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه(٨٥٥) ، ومسلم ، (٥٦٤) من حديث جابر بن عبدالله.

وفى رواية لمسلم: «من أكل البصل والثوم والكرات فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»[1]. ولذلك على المسلم أن يحرص أن تكون الإقامة فى المسجد طيبة، لتكون الأفئدة منشرحة. ويجب أن نراعى جلال المسجد ؛ لأننا نعرف أن الرحمات تتنزل على الصف الأول ثم الذى يليه[2]، فلا يحاول واحد منا أن يحجز مكاناً بالصف الأول بأن يضع فيه سجادة خاصة أو كوفية، ثم يأتى أحيانا بعد إقامة الصلاة ويحاول اقتحام الصفوف ليصل إلى الصف الأول.

وإياك أن تعتقد أن الصف الأول محجوز لشخص معين ولو أتى متأخرا، فكل إنسان يأتى للمسجد عليه أن يأخذ دوره، ويقعد فى المكان الخالى. وإياك أن تعتقد أن الله سبحانه وتعالى لا يعرف الذين يتكوَّن منهم الصف الأول ، إنهم هؤلاء الذين جاءوا للمسجد أولا. أما أن تحضر إلى المسجد وتحجز مكاناً فى الصف الأول لصديق أو قريب بحيث إذا جاء إنسان آخر ليصلى فى هذا المكان قلت له : إن المكان محجوز. نقول لك: أنت حر أن تفعل ذلك فى بيتك، ولكن من جاء إلى بيت الله أولا فليجلس أولا، وكثيرا ما تحدث مسألة الحجز للأماكن فى مواسم الحج والعمرة. وعلى من يجد مكاناً قد حُجِزَ بسجادة أو أى شىء آخر أن يزيحها بعيدا ويصلى.

وأنت فى بيت الله تكون فى ضيافة الله. وأنت تعلم أنه إن جاءك أحد فى بيتك على غير دعوة فأنت تكرمه، فإذا كان المجىء على موعد فكرمك يكون كبيرا. فما بالنا بكرم من خلقنا جميعاً؟

إن الحق سبحانه وتعالى يجزيك من فيض كرمه من ساعة أن تنوى زيارته فى بيته، فأنت فى صلاة منذ أن تبدأ فى الوضوء فى بيتك استعداداً للصلاة فى المسجد؛ لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يطيل عليك نعمة أن تكون فى حضرته.

(١) أخرجها مسلم فى صحيحه (٥٦٤) كتاب المساجد.

(٢) عن أبى أمامة قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول ، قالوا : يا رسول الله وعلى الثانى؟ قال : وعلى الثانى». أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٢) والطبرانى فى المعجم الكبير(٨/ ٢٠٥). قال الهيثمى فى المجمع (٢/ ٩١): «رجال أحمد موثقون».

وسبحانه وتعالى حين يدعونا إلى بيته بالأذان، فلك أن تعلم أنك إن خالفت هذه الدعوة تعاقب[١] ، ولكن ليس معنى هذا أن الله لم ييسر لك بيته لتزوره فى أى وقت. فهذه الدعوة بالأذان للصلاة تمثل الحرص من الله سبحانه وتعالى على أن يلقاك ليعطيك من فيوضاته ما تستعين به على مكدرات الحياة. ولكن إن أحببت أن تجلس فى المسجد قبل الصلاة أو بعدها فافعل. تعالَ فى أى وقت وصلِّ كما تشاء، فإذا قلت: «الله أكبر» تكون فى حضرة الله . وإن لم تستطع فصلواتك الخمس فى اليوم الواحد هى القسط الضرورى لصيانة نفسك المؤمنة ؛ لأنك تقابل ربك أثناء الصلاة وتعلن الولاء له .

فالصلاة إذن خير أراده الله لك حتى لا تأخذك أسباب الحياة، وأراد سبحانه بها أن تفيق إلى منهجه الذى يصلح بالك، ويصلح الدنيا لك وبك فلا تأخذك الأسباب، بل تأخذ أنت بالأسباب. وحين تسمع «الله أكبر» ينادى بها المؤذن لصلاة الظهر - مثلا - فعليك أن تترك أسباب الدنيا وتذهب لتقف بين يدى الله عز وجل، ثم تخرج من الصلاة إلى الأخذ بالأسباب إلى أن تسمع أذان العصر، ثم أذان المغرب، ثم أذان العشاء، وكل هذا تذكير لك بالله الخالق العظيم حتى لا تشغلك الدنيا فتنسى أن صيانة نفسك بيد خالقك سبحانه. وأطول فترة بين العشاء والفجر نكون فيها نائمين فلا يأخذنا متاع الدنيا.

إذن فالله سبحانه وتعالى يريد منا الولاء دائما. فإذا كنت تعتز بالله فأنت تديم الولاء له باستمرار الصلاة، وأنت حين تسجد لله وتتذلل له، فإنه سبحانه يزيدك عزة[٢] ويكون معك دائما، ويقيك ذل الدنيا.

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «من سمع النداء فلم يأته فلا صلاة له إلا من عذر». أخرجه ابن ماجة فى سننه (٧٩٣) والدار قطنى فى سننه (١/ ٤٢٠) والطبرانى فى معجمه الكبير (١١/ ٤٤٦) بسند صحيح.

(٢) عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أن النبى ﷺ قال: «عليك بكثرة السجود لله، فإنك لاتسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة» أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٨٨) وأحمد فى مسنده(٥/ ٢٧٦). وأخرجه ابن ماجه فى سننه (١٤٢٣) بلفظ «ما من عبد يسجد لله سجدة» الحديث.

وقلنا قديما: إن الإنسان إذا ما أراد أن يقابل عظيما من العظماء فهو يطلب المقابلة، وقد يقبل هذا العظيم مبدأ اللقاء وقد لا يقبل، فإن قبل حدد اليوم والساعة والمكان وفترة الزيارة. فإن أردت أن تطيل فهو يقوم واقفاً إعلاناً بأن الزيارة قد انتهت.

ولكن الحق سبحانه وتعالى بمطلق الكرم لا يعامل خلقه هكذا، فبيته مفتوح دائما حين يدعوك للصلوات الخمس، فهذا أمر ضرورى، ولكن بين الصلوات الخمس إن أردت لقاء الله فسبحانه يلقاك فى أى وقت وتدعوه بما تشاء، وتطيل فى حضرته كما تريد، ولايقول لك أحد: إن الزيارة قد انتهت. وأذكركم دائما بقول الشاعر:

حَسْبُ نفسِى عِزًّا بأنّى عَبْدٌ

يَحْتفِى بِى بلا مَواعِيد ربُّ

هُوَ فى قُدْسِهِ الأعزِّ ولكِنْ

أنَا ألقَى متَى وأينَ أُحبُّ

●●●

ونعود إلى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٧]

لأن المساجد مخصصة لعبادة الله تعالى، فمن غير المنطقى أن يبنيها أو يجلس فيها مشرك أو كافر، وقوله تعالى: «ما كان» أى ما ينبغى، وقوله تعالى: ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ أى هم الذين يشهدون على أنفسهم بالكفر؛

فشهادتهم بالحال، وبالمقال. كما نشهد على أنفسنا بالإيمان حين نلبى فى الحج والعمرة ونقول: لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، أى أننا ننزه الله تعالى عن الشرك.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، و﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى المشركين الذين شهدوا على أنفسهم بالكفر، وحكم الله ألا يعمروا مساجد الله، و﴿حَبِطَتْ﴾ أى نزلت من مستوى عال إلى مستواها الحقيقى دون مستواها الشكلى، فتجد العمل وكأنه منفوخ كالبالون الضخم، وهو فى حقيقته مجرد فقاعة ضخمة ما تلبث أن تنكمش أو تسقط، فهى أعمال لا قيمة لها، وليس لها حصيلة ؛ لأنها أعمال باطلة. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾ [الكهف]

وتجد الواحد من هؤلاء يظل يعمل ويعمل، ويظن أنه سوف يجنى خيراً كثيراً من هذا العمل، وقد يكون العمل مفيداً لغيره من الناس. ولكنه افتقد النية، ففسد نتيجة لذلك. والقرآن الكريم يعرض لحبوط الأعمال فى آيات كثيرة والمثال هو قول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور: ٣٩]

والسراب هو ما يخيل إليك بلمعانه أنه ماء فى الصحراء. وعندما تذهب إليه لا تجد شيئا. والذى لا يحس بالظمأ قد لا يلتفت إلى ذلك. ولكن الظمآن تتعلق نفسه بالماء، فيجيل بصره فى كل مكان يبحث عنه، فإذا رأى أى لمعان حسبه ماء، وعندما يجيء إليه لا يجد شيئاً، وليت الأمر يقتصر على ذلك، بل هو

يجد الله عنده ليوفيه الحساب. ومثل هذا الانسان لم يضع الله فى باله يوماً من الأيام، وليس لمثل هذا الإنسان عند الله تكريم أو ثواب. لأن الإنسان يطلب أجره ممن عمل له. وهو لم يعمل عمله وفى باله الله.

وأنت إذا صنعت معروفاً تقصد به وجه الله عز وجل جزاك الله عنه خيرا، ولكن إن عملت معروفا لتحقق به مصلحة دنيوية خاصة بك أو تأخذ به شهرة فلا جزاء لك عند الله، ولابد أن يصنع الإنسان المؤمن كل عمل وفى باله الله خالقه والمتفضل عليه بالنعم، فإن أطعمت فقيرا فلتطعمه لوجه الله، وعليك ألا تفعل المروءة من أجل أن يقال عنك : إنك صاحب مروءة. ومن يفعلون الخير عليهم أن يحرصوا على أن يكون الله عز وجل فى بالهم، لا أن ينالوا شهرة من هذا الخير، وألا يأتى منهم خبر هذا الخير لا بمقال ولا بحال.

وعلى سبيل المثال تلك اللافتات التى توضع على المساجد بأسماء من قاموا بتأسيسها. فمن بُنى من أجله المسجد وهو الله عليم بكل شىء، ويعلم اسم من أقام البناء ، وعليك أن تسميه بأى اسم لا يمت لك بصلة، حتى لاتدخل فى دائرة «عملت ليقال وقد قيل». وحتى المقاتل الذى يحارب بين صفوف المؤمنين عليه أن يعقد النية لله، لا أن يقاتل من أجل أن يقال إنه شجاع ، لأنه إن فعل، حبط عمله وكان من الخاسرين لأن عمله قد شابه الرياء والسمعة.

ويبين الرسول صلى الله عليه وسلم جزاء المرائين فى حديثه الشريف الذى يقول فيه عليه الصلاة والسلام : «أول الناس يقضى لهم يوم القيامة ثلاثة : رجل استشهد فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال: كذبت ، ولكنك قاتلت ليقال فلان جرىء ، فقد قيل ، ثم أُمِر به فسُحِبَ على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن فأُتى به ، فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال: فما عملت فيها ؟ قال :

تعلمت العلم وعلّمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم، وقرأت القرآن ليقال قارىء فقد قيل ، ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى ألقى فى النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال : فما عملت فيها ؟ قال :ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت، ولكن ليقال ؛ إنه جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه فألقى فى النار»[1] .

وعلى ذلك فالإنسان إن لم يضع الله فى باله وهو يعمل فسوف يجد الله يحاسبه على أساس أن عمله غير مقبول.

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى آية ثانية:

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ [إبراهيم: ١٨]

ولك أن تتصور ماذا تفعل العاصفة فى الرماد ؛ إنها لا تبقى منه شيئاً. والمشرك الذى كان يدخل المسجد ويسقى الناس من عصير العنب غير المخمر، ويقوم بعمارة المسجد الحرام قبل تحريم الله لدخول أمثاله إلى هذا المكان ، هذا المشرك لم يكن ليأخذ ثواباً ؛ لأنه ارتكب خيانة عظمى بأن أشرك بالله ، بينما يأخذ المؤمن الثواب لأنه يدخل المسجد ويعمره وهو مؤمن بالله ولا يشرك به شيئاً .

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [التوبة: ١٧]

لأنهم عملوا لغير الله فلقوا الله بلا عمل . ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك :

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥) وأحمد (٢/ ٣٢٢) والنسائى فى سننه (٦/ ٢٣، ٢٤) عن أبى هريرة ، واللفظ للنسائى.

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ ١٨

الإيمان : هو إيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وقمة الإيمان شهادة أن «لا إله إلا الله ،وأن محمداً رسول الله». وكانت هناك حساسية عند أهل قريش من مسألة الرسول هذه، وأنه محمد بن عبدالله، وبعضهم قد قال: القرآن جميل ورائع فلماذا جاء على لسان محمد؟ وكان اعتراض كفار قريش على الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا القول الذى حكاه القرآن عنهم :

﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١]

إذن فالمشكلة عندهم لم تكن فى القرآن ذاته، بل كانت فى شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم . (١)

ويرد الحق سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الزخرف : ٣٢]

أى أن رحمة الله تعالى خاصة به، لايقسمها إلا هو بمشيئته، يقسمها كيف

(١) ولايطعن فى هذا أن الله عز وجل قد حكى عن مشركى قريش أنهم قالوا : (أجعل الآلهة إلها واحدا) (ص:٥) وأن منهم من (ضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم) [يس :٧٨]، فقد يكون هذا عند بعضهم سترا منه لحقيقة رفضه لشخص الرسولﷺ حسدا من عند نفسه وكبرا.